بشر ومعه قصيدته (إشارة حرة)[9] تتولد منها الدّلالات والأسئلة، وتغازلها التواريخ والسير ولكنها لا تلصق بها. إنه موجود في النص يقينا. وليس موجوداً في التاريخ ظناً وافتراضاً. وقصيدته خرجت من رحم النص، حسب ما تظهره دواعي النص، وهي سابقة على المقامة ـ كما يفترض قانون الذاكرة الثقافية. أما بشر بن عوانة فهو من اختراع بديع الزمان الهمذاني ومن بنات أفكاره ـ كما تقتضيه شروط القراءة، وهو شاعر سابق على بديع الزمان وعصره، كما تقتضيه دواعي وجود اسم بإزاء قصيدة.

هذه قصيدة جليلة مما يقتضي وجود فحل وراءها وليس للفحل أن يكون وهماً وخيالاً. ومن شرط الفحل أن يكون حقيقة وواقعاً.

نحن هنا أمام موقف طريف جداً، فهذه هي أول مرة يحدث المدلول قبل الدال، ويتولى المدلول انتاج الدال. والتصور الذهني ينتج وجوداً عينياً. لقد أفرزت القصيدة شاعرها وولدت البنت أمها وأنتج الجنين رحمه.

صار الأثر وجاء بعده المؤثر (الفاعل) وإن جاء بشر في مطلع المقامة بوصفه اسماً وخبراً لفعل ناقص، فقد جاء بعد النص ليكون ذا ميلاد وممات، وقد كان في المقامة بلا مولد وبلا موت.

وسواء كانت القصيدة سابقة على المقامة أم كانت ناتجة عنها فإنها في الحالتين معاً هي مركز النص وسببه، وهي الجسد الذي صمم بديع الزمان له ثوباً يليق به.

(9) عن مفهوم الإشارة الحرة، انظر عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير، ص 94 ـ دار سعاد الصباح ـ القاهرة الكويت 1993 م.